المحاضرة العاشرة : الاصغاء

يقوم الباحث اثناء عملية المقابلة باداء دور المستمع الذي يصغى ( الى المتكلم ) اصغاء فعليا . وليس هذا الدور هو مجرد الدور الذي نقوم به جميعا عندما نصغى للاصدقاء , وافراد الاسرة , والزملاء . وباعتبار ان الباحث هو الشخص الذي يجرى المقابلة في حالة التاريخ الشفاهي , فانه يتوجب عليه ان يتعلم ان يصغى اصغاء كاملا وبعناية واهتمام دقيقين جدا وفي تناغم مع الفروق الدقيقة ( في كلمات المبحوث ) على نحو يزيد عما يستعمله اغلبنا في الحياة اليومية . وعلى ذلك , يتوجب علينا ان ندرب عقولنا واذاننا على ان تستمع الى القصة التي يحكيها الاخرون , والا يقتصر ذلك على الاستماع للكلمات فقط , بل يتسع ليشمل – ايضا – الاستماع الى المعاني , والانفعالات , والصمت . ان واجبنا ان نصغى الى الراوي والى انفسنا ايضا . وقد تتضمن هذه العملية قيامنا بالتشكيك في – وربما كذلك التخلي عن – المفاهيم والمقولات التي نؤمن بها من قبل , والتي تصوغ فهمنا للحقيقة الاجتماعية , مما يجعل من المحتمل ان تحدث هذه العملية تغييرا في الباحث كذلك.

ويطرح جاك 1991 ثلاثة اساليب بقصد مساعدتنا على الاصغاء بصورة اكثر فعالية فهناك امور يمكننا ان نصغى اليها وهي : مواقع يمكن ان يكمن فيها المعنى انطلاقا من وجهة نظر الراوي : -

اولا :- يستطيع الباحثون ان يصغوا الى " اللغة الاخلاقية " للشخص . فهذه الانواع من التعليقات ذات طابع اميل الى التقييم الذاتي ( اي تقييم الانسان لنفسه ) . ذلك ان الطريقة التي يقيم بها المرء نفسه , يمكنها ان تكشف عن الكثير مما يتصل بالامور التي يركز عليها المرء في حياته , وكيف يستخدم التصورات الثقافية للنجاح ,والفشل , والجاذبية الشخصية , والعلاقات المتحررة ... الخ, وذلك بوصفها مقاييس يستخدمها المرء في حياته وفي تشكيل هويته . كما ان هذه التعليقات تزودنا برؤى وافكار نتبين بها المحور الذي تدور حوله انفعالات هذا الشخص , ومواطن ثقته بنفسه , والامور التي يتامل بها ذاته .

على الرغم من ان هذه الاحكام الخلقية القائمة على التقييم الذاتي للراوي تختلف اختلافا كبيرا جدا في فحواها وطابعها , فانها تتيح لنا ان نفحص العلاقة بين مفهوم الشخص عن نفسه والمعايير الثقافية من ناحية , والعلاقة بين ما نقدره وما يقدره الاخرون من ناحية ثانية , واخيرا بين الطريقة التي طلب منا ان نتصرف وفقا لها والطريقة التي نحس – وفقا لها – بانفسنا عندما نتصرف – او عندما لا نتصرف – وفقا لما طلب منا .

مثال ذلك , انه ان كنت تجرى مقابلة تاريخ شفاهي مع امراة وكانت تتحدث عن احدى الاحداث السارة في حياتها , كحفلة عيد ميلاد متميزة اوغيرها من الاحتفالات العائلية , وفي اثناء اثناء حديثها قالت : لقد كانت " التورتة " جميلة فعلا بزخارفها المنمقة كما انها كانت لذيذة الطعم للغاية منها ساعتها . فهذه الجملة من شانها ان تزودك بمعلومات موثوقة عن امور متعددة . فهي مثال على استعمال اللغة ذات الطابع الاخلاقي – وهي هنا لغة الشعور بالذنب – في نقل المعنى . وقد تقوم هذه الجملة بدور العلامة التي تدل الباحث الذي يجرى المقابلة على وجود بعض القلق او المشاغل المتعلقة بصورة الجسد لدى هذه المبحوثة , اوتدله على وجود هواجس تراود هذه السيدة بخصوص وزنها وكيف تبدو صورتها لدى الاخرين . بجانب ذلك , فان هذه الجملة لم تات من فراغ , بل تاتي في سياق ثقافي يعطى اولوية للنحافة ولضبط النفس , خاصة بالنسبة للنساء . وهكذا فانك تستطيع حينئذ ان تبدا في عقد الروابط بين صورة المبحوثة عن نفسها والبيئة الثقافية الاوسع التي تعيش فيها . ذلك ان كلا من الجملة التي قالتها , والطريقة التي قالتها بها , امران مهمان لهما دلالة . يضاف الى ذلك ان امثال تلك الجمل قد تزود الباحث بمجسات عليه ان يتابعها فيما بعد او حتى في جلسة اخرى مع المبحوثة .

ثانيا : - الامر الذي ينبغي الاصغاء اليه اصغاء فعالا هو ما يطلق عليه جاك مصطلح " ما وراء الجمل " (او الجمل المفسرة ) . وهي المواضع التي توجد اثناء اجراء المقابلة حيث يتوقف المبحوث ويكرر العودة لما سبق ان قاله تلك اللحظة ليعيد التفكير فيه على نحو نقدى . لقد نطلق بجملة , ولكنه الان في سبيله للرجوع الى تلك الجملة لكي يعلق عليها . وقد تكشف هذه اللحظة عن تغير في عملية تفكيره , وهي لحظة من لحظات التنبه للنفس او لحظة انزعاج من الطريقة التي قد تفهم بها الجملة التي نطق بها , ومن ثم تتولد عن هذا الانزعاج رغبة داخلية في نفسه لتعزيزما نطق به من كلمات وربما اعادة تفسيره .

تنبهنا الجمل المفسرة الى وعي الفرد بالتناقض الذي يستشعره داخل نفسه ,او بين ما هو متوقع منه وما يقوله فعلا . وهي تدل الباحث على المفاهيم والمقولات التي يستخدمها الفرد لكي يراقب افكاره , وتتيح لذلك الباحث ان يلاحظ كيف يسبغ الشخص على افكاره ومشاعره طابعا اجتماعيا وفقا لبعض المعايير التي يراعيها .

مثال ذلك , انه قد يرجع احد المبحوثين , بعدان يقول تعليقا يتصل بموضوع العرق , قد يرجع بعد ذلك مباشرة ليوضح جملته الاصلية هذه او يفسرها او يعززها . وقد يكون هذا النوع من الرجوع انعكاسا لمعايير مجتمعية ذات ظروف تاريخية معينة , كالظهور مثلا في صورة الشخص غير المتعصب للعرق , ولوعى الشخص المبحوث بانه ربما يكون قد انتهك تلك المعايير في نظر الباحث الذي يجرى معه المقابلة . وحينئذ تكون امثال تلك الجمل مجالا محتملا لفهم مدى شعور الافراد بالمعايير والقيم والتوقعات المجتمعية ومدى تكيفهم معها .

ثالثا : - يتوجب علينا ان نتعلم الاصغاء " لمنطق السرد " باذلين اهتماما خاصا لما فيه من مظاهر التناقض والافكار المحورية " التي يتكرر ورودها " . ومن الامورذات الدلالة ملاحظة الطريقة التي ترد بها الافكار المحورية داخل القصة التي يحكيها الشخص وصلتها بالافكار المحورية الاخرى , لانها تعتبر بيانات مهمة . ويمكن ان يمدنا تاكيد المبحوث على اهمية امور معينة , والذي يتم من خلال الافكار المحورية المتكررة ومن خلال مظاهر الاتساق ومظاهر التناقض , يمكن ان يمدنا برؤية ثاقبة للمنطق الذي يستعمله الشخص في رواية حكايته . مثال ذلك :- ما هي المسلمات التي يؤمن بها المبحوثين والتي تشكل اسلوبهم في تفسير خبراتهم الحياتية الشخصية ؟ وما هي الافكار, والاعتقادات , والقيم والاحكام الخلقية التي ترتكز عليها عملياتهم التفسيرية والسردية ؟

ويحثان جاك واندرسون من استعمال اساليب الاصغاء المذكورة , فانهما يحثان الباحثين كذلك على ان يتعلموا الاصغاء الى انفسهم . ويمثل هذا الاصغاء , في ضوء خبرتنا الخاصة , جزءا ذا اهمية حاسمة من عملية الاصغاء في مقابلات التاريخ الشفاهي . ففي اثناء اصغائك الى الراوي لابد ان تصغى الى الرقيب في داخلك انت , اي الى مشاعرك , والامور التي تحيرك , والى تساؤلاتك . فهذه مجالات قد تحتاج الى الايضاح , والتعمق في البحث , والاستكشاف . وعليك الا تعمد الى مقاطعة الراوي لتتحصل منه على تلك الاسئلة , وتذكر ان عملك الاساسي هو الاصغاء . ومع ذلك , ففي اللحظات التي يتوقف فيها الراوى عن السرد , وفي اللحظات التي ينتقل فيها من موضوع لاخر , قد تكون بحاجة الى الرجوع للوراء والبحث بناء على ما تشعر به من افكار واحاسيس اثناء اصغائك اليه .